حجة الإسلام الغزالى

وتفسيره القرآن

يشرح حجة الإسلام فى تلك الرسالة المضيئة :

قوله تعالى :

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

وبيان ذلك يستدعى تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود، ولكنى أشير إليهما بالرمز والاختصار :

أحدهما فى بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعانى بقوالب الأمثلة ، ووجه كيفية المناسبة بينهما، وكنه الموازنة بين عالم الشهادة التى منها تتخذ طيبة الأمثال ، وبين عالم الملكوت التى منه تنزل أرواح المعانى .

والقطب الثانى فى طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها ، فان هذا المثال مسوق لبيان ذلك . وقد قرأ بن مسعود « مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة فيها ، وقرأ أبى بن كعب « مثل نور قلب من آمن كمشكاة فيها » .

القطب الأول — فى بيان سر التمثيل ومنهاجه : اعلم أن العالم عالمان : روحانى

وجسماني وإن شئت قلت: حسي وعقلي، وإن شئت قلت علوي وسفلي، والكل متقارب، وإنما يختلف باختلاف العبارات، فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت جسماني وروحاني، فإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لها، قلت: حسي وعقلي، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر، قلت علوي وسفلي، وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة، والآخر عالم الغيب والملكوت، ومن ينظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما يتحير من كثرتها ويتخيل كثرة المعاني، والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلا والألفاظ تابعة. وأمر الضعيف بالعكس منه، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى «أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم».

وإذ قد عرفت معنى العالمين، فاعلم أن العالم الملكوتي العلوي عالم الغيب إذ هو غائب عن الأكثر، والعالم الحسي عالم الشهادة، إذ يشهده الكافة والعالم الحسي مرقاة إلى العالم العقلي، ولو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقي إليه، ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى الحضرة الربوبية والقرب من الله، فلن يقرب من الله أحد، مالم يطأ بحبوحة حظيرة القدس. والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذي نعنيه بعالم القدس، وإذا اعتبرت جملته بحيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس، وربما سميناه الروح البشري هو مجرى لوائح القدس الوادي المقدس. ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانا في معاني القدس. ولكن لفظ الحظيرة محيط بجميع طبقاتها، فلا تظن أن هذه الأفعال طامات غير معقولات عند أرباب البصائر!.

وأشتغالي الآن بشرح كل لفظ مع ذكره، يصدني عن المقصد، فعليك بالتشمير لفهم الألفاظ فأرجع إلى الغرض فأقول: لما كان عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت، كان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا

الترقى ، إلى عالم الملكوت ، كان سلوك الصـــراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى ، وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى ، فلو لم يكن بينهما مناسبة اتصال لما تصور الترقى من أحدهما إلى الآخر ، فجعلت الرحمة الآلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت . فما من شيء فى هذا العالم إلا هو مثال لشيء من ذلك العالم وربما كان الشيء الواحد مثالا لأشياء من عالم الملكوت ، وربما كان الشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة ، وإنما يكون مثالا إذا ماثله نوعا من المماثلة ، وطابقه نوعا من المطابقة ، وإحصـــاء تلك الأمثلة يستدعى استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها ، ولن تفى به القدرة البشرية ولم تتسع لفهمه القوة البشرية ، ولا تفى لشرحه الأعمار القصيرة ، فغايتى أن أعرفك منها أنموذجاً لتستدل باليسير منها على الكثير ، وينفتح لك باب الاستبصار بهذا النمط من الأسرار فأقول :

إن كان فى عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة ، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولاجلها قد تسمى أربابا ، فيكون الله رب الارباب لذلك ، ويكون لها مراتب فى نورانيتها متفاوتة ، فبالحرى أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب وبذلك الطريق يترقى أولا إلى ما درجته درجة الكواكب فيتضح له إشراق نوره ، وينكشف له أن العالم الاسفل بأسره تحت سلطانه وتحت اشراق نوره ويتضح له جماله وعلو درجته ما ينادى فيقول : هذا ربى ! ثم اذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر ، رأى أفول الاول فى مضرب الهوى أى بالإضافة الى ما فوقه أفولا : لا أحب الآفلين ! فكذلك يترقى حتى ينتهى الى ما مثاله الشمس ، فيراه أكبر وأعلى ، قابلا للمثال بنوع مناسبه له معه والمناسبة مع ذى النقص نقص ، وأقول أيضا فيه من يقول . وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين ، ومعنى

الذى اشارة مبهمة لا مناسبة لها . اذلو قال قائل : ما مثال مفهوم الذى ؟ لم يتصور أن يجاب عنه ! فالمنزه عن كل مناسبة هو الله الحق ، ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله ما نسبة الله ؟ نزل فى جوابه : « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » معناه التقديس عن النسبة ، ولذلك لما قال فرعون لموسى : وما رب العالمين كالطالب لما هيته ، لم يجبه إلا بأفعاله . إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال : رب السموات والأرض ، فقال فرعون لمن حوله : ألا تستمعون ؟ كالمنكر عليه فى عدوله فى جوابه عن طلب الحقيقة ، فقال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » ، فنسبه فرعون إلى الجنون ، إذ كان مطلبه المثال والماهية وهو يجيب عن الأفعال بالأفعال ، وقال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

ولنرجع الآن إلى الأنموذج فنقول : علم التعبير يعرفك مقدار ضرب المثال لأن الرؤيا جزء من النبوة أما ترى أن الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة فى معنى روحانى وهو الاستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار والأنوار على الجميع ؟ والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها كما يفيض السلطان آثاره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان . وأن من يرى أن فى يده خاتما يختم به أفواه الرجال وفروج النساء يعبر له ، أنه يؤذن قبل الصبح فى رمضان ! ومن رأى أنه يصب الزيت فى الزيتون تعبيره أن تحته جارية هى أمه وهو لا يعرفها !

فاستقصاء أبواب التعبير فى أمثال هذا الجنس غير ممكن ، فلا يمكننى الاشتغال بعدها ، بل أقول : كما أن فى الموجودات العالية الروحانيه مامثاله الشمس والقمر والكواكب . منها مالها أمثلة أخرى إذا اعتبرت منها أوصاف أخرى سوى النورانية ، كذلك ، فان كان فى تلك الموجودات

ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ، ومنه تنفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف وتفائس المكاشفات ، فمثاله الطور ، وإن كانت الموجودات التي تتلقى تلك النفائس بعضها أولى من بعض فمثالها الوادى وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجرى من قلب إلى قلب فهذه القلوب أيضا أودية ، ومنتهى الوادى قلوب الأنبياء والأولياء والعلماء ، ثم من بعدهم . فان كانت هذه الأودية دون الأول منها نغترف فبالحرى أن يكون الأول هو الوادى الايمن دون لجته وميدانه ، وإن كان روح النبي سراجا منيرا وكان ذلك الروح مقتبسا بواسطة وحى كما قال « أوحينا إليك روحا من أمرنا » فما منه الاقتباس مثاله النار ، وإن كان المتلقون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما يسمعه وبعضهم على حظ من البصيرة ، فمثال المقلد الغير المستبصر ، الجذوة والقبس والشهاب .

وصاحب الذوق مشارك للنبي فى بعض الاحوال ومثال تلك المشاركة الاصطلاء وإنما يصطلى بالنار من معه النار لا من سمع خبرها وان كان أول منزل الانبياء الترقى الى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال ، فمثال ذلك المنزل الوادى المقدس : وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادى المقدس إلا باطراح الكونين أعنى الدنيا والاخرة والتوجه إلى الواحد الحق وكانت الدنيا والاخرة متقابلتين متجاذبين وهما عارضان للجوهر النورانى البشرى يمكن اطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى ، فمثال اطراحهما عند الإحرام والتوجه إلى كعبة القدس ، خلع النعلين . بل نترقى إلى الحضرة الربوبية مرة أخرى فنقول : إن كان فى تلك الحضرة شيء بواسطته تنتقل العلوم المفصلة فى الجواهر القابلة فمثاله القلم ، وإن كان فى تلك الجواهر القابلة للتلقى ما انتقش بالعلوم ، فمثاله اللوح والكتاب والرق المنشور . وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخر له ، فمثاله الصورة ، وإن كان هذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب

ترتيب منظر ، فمثاله الصورة . وإن كان يوجد الصورة الإنسية ترتيب منظوم على هذه المشاكلة ، فهي على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال على صورة الرحمن وبين أن يقال على صورة الله ، اذ الرحمة الإلهية هي التي على صورة الحضرة الإلهية بهذه الصورة . ثم أنعم على آدم فاعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم ، حتى كانها كل ما في العالم أو نسخة من العالم مختصرة . وصورة آدم أعني هذه الصورة ، مكتوبة بخط الله الخط الإلهي الذي ليس برقم حروف ، اذ يتنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفاً ، كما يتنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحروفا ، وفعله عن أن يكون قصصا وحديداً ، ويده عن أن تكون لحما وعظما ! ولو لا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه . اذ لا يعرف به الا من عرف نفسه فلما كان هذا من آثار الرحمة كان صورة الرحمة كان صورة الرحمن لا على صورة الله لحضرة الإلهية غير حضرة الرحمن وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال ، قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس ، ولو لا هذا المعنى ، لكان قوله : ان الله خلق آدم على صورة الرحمن غير منظوم لفظا . بل كان ينبغي أن يقول على صورته . واللفظ الوارد في الصحيح على صورة الرحمن . ولأن تمييز حضرة الملك عن الربوبية يستدعي شرحا طويلا فلنتجاوزه ، ويكفيك من الأنموذج هذا القدر : فإنه بحر لا ساحل له . فإن وجدت في نفسك نفوراً عن هذه الأمثال فاستأنس بقوله تعالى ، أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، الآية — فانه قد ورد في التفسير أن الماء هو المعرفة والأودية القلوب .